ا

المسلمون والغزو الأوروبي لإمبراطورية الفولاني

انتشر الإسلام في غرب أفريقيا بفضل هجرات القبائل العربية وقبائل البربر التي أخذت تهاجر إلى غرب القارة، وتبسط نفوذها هناك، وخصوصا قبائل بنى هلال وبنى سليم، تلك القبائل التي تقدمت تجاه الصحراء الكبرى باحثة عن ظروف تتشابه مع الحياة السائدة في بيئتها الأصلية في الجزيرة العربية، وترتب على هذا التحرك وتلك الهجرات أن اضطرت القبائل المحلية من البربر والزنوج إلى التوسع جنوبا بعد اعتناقها الدين الإسلامي، فتحركت قبيلة جدالة جنوباً وعبرت نهر النيجر في طريقها إلى السودان الغربي. وكانت هذه القبائل حلقة الاتصال بين المغرب بشعوبه وثقافته والمحيط الزنجي الذي يمتد حتى بحيرة تشاد [1]. ولما قامت دولة المرابطين في شمال أفريقيا كونت جبهة إسلامية قوية امتدت من غرب أفريقيا إلى بلاد المغرب والأندلس، وكان لها فضل كبير في انتشار الإسلام في هذه الجهات، وانتشر دعاة المرابطين من السنغال إلى غينيا حتى ساحل العاج والنيجر، ودخلوا إمبراطورية غانا الوثنية في

النصف الثاني من القرن إلحادي عشر أي في عام 1076 وفتحوها، وصارت إمبراطورية إسلامية حتى انتهت في القرن الثالث عشر. ولما أسلمت اشتهرأهلها بالحماس الديني، وصاروا دعاة الإسلام في السودان الغربي[1].

ولما انتهت إمبراطورية غانا الإسلامية قامت على آثارها إمبراطورية أخرى هي دولة مالى التي ساعدت على نشر الإسلام وحضارته، وذهب ملوكها إلى بيت الله الحرام وسط مظاهر كبيرة، وطافوا ببلاد إسلامية في رحلتهم حاملين معهم الإسلام في كل مكان حلوا به، ولا ننسى موكب منسى موسى (1307-1332 م) ذلك الموكب الذي مر على مصر عام 1324 م، وأصبح هذا السلطان من دعاة الإسلام حيث امتد بدولته إلى مدينة جاو في النيجر، بل اخترق الصحراء وتوغل في المنطقة الاستوائية جنوبا [2]. لكن انتهت هذه الدولة الإسلامية لتقوم على أنقاضها دولة أخرى هي دولة صنغى التي حملت أيضا لواء الإسلام وتوسعت جنوبا، ولولا الغزو المغربي لها في أواخر القرن السادس عشر لكان لهذه الدولة شأن كبير في نشر الإسلام في بلاد الزنوج [2]. وبعد انتشار الإسلام في هذه الجهات بدأت قبائل الفولاني تقوم بدور كبير في نشر الدين الحنيف، وصار دور الفولاني لا يقل أهمية عن دور الممالك الإسلامية السابقة، واختلف المؤرخون حول أصل هذا الشعب، وانقسموا شيعا وأحزابا، فيرى ديبوى (Dubois) أن الفولاني من البربر، وأنهم انحدروا من منطقة أدرار شمال السنغال، واندفعوا إلى السودان الغربي بعد طرد المسلمين من الأندلس، واشتغلوا بالزراعة والرعي[4].

ويرى سلجمان (Seligman) أن الفولاني قد انتشروا بالتدريج في السودان الغربي وأعالي السنغال خلال ازدهار إمبراطورية غانا، وأنهم شقوا طريقهم إلى بلاد الهوصا في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، وصاروا قوة مسيطرة بعد نجاح حركة الجهاد الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودى عام 1804[5].

ومهما اختلفت الآراء حول أصل الشعب الفولاني فإن الذي يهمنا هو أن هذا الشعب، بعد تفكك دولة صنغى ساد منطقة السودان الغربي فترة من الفوضى استمرت حوالي قرنين من الزمان تعرض فيها المسلمون لكثير من ألوان الاضطهاد حتى نهض الفولاني بثورتهم الكبرى مع إشراقة القرن التاسع عشر [1].

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر استطاعت إحدى إمارات

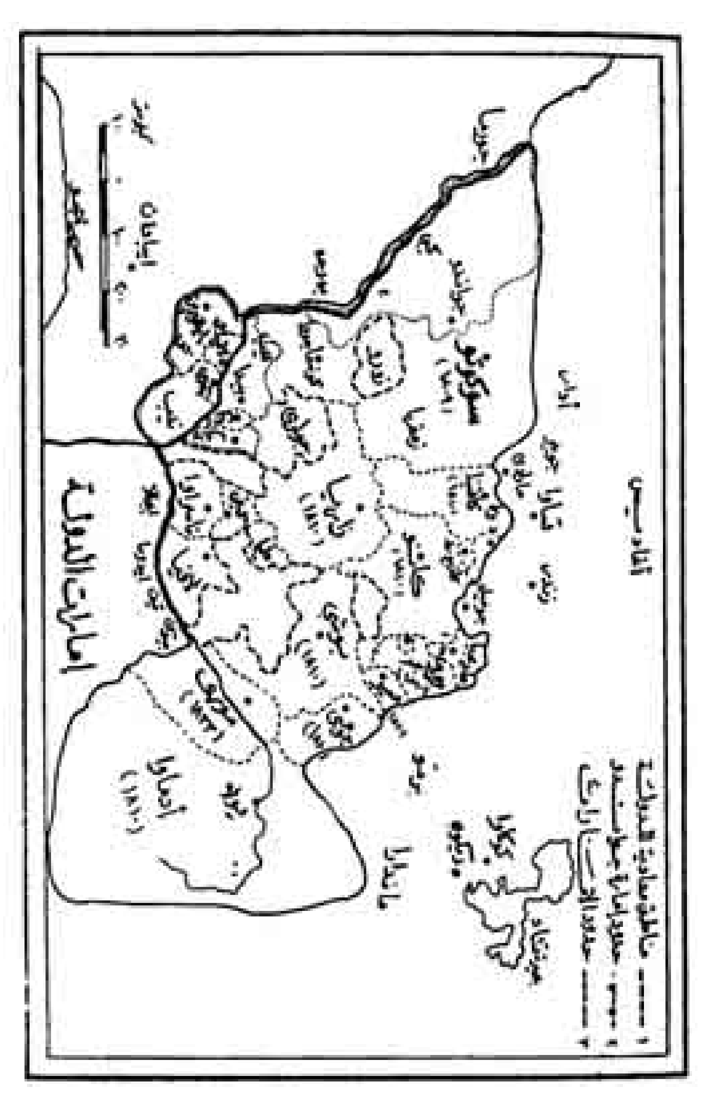
الهوصا، وتدعى إمارة جوبير، أن تنتزع السيادة من إمارة زمفرا، وصارعت إمارات أخرى مثل كيبي، وكاتسينا، وكانو وامتدت جيوشها حتى دولة برنو. ورغم كل هذا التوسع لم تستطع أن تحقق الوحدة السياسية لإمارات الهوصا لأن كل إمارة تحاول السيادة على غيرها. وكل ما فعلته إمارة جوبير هو السيطرة إلى حين على الإمارات الأخرى [2].

وخلاصة القول: إن الصراع بين إمارات بلاد الهوصا لم يساعد إلا على التفرقة وعدم الاستقرار، وعدم التركيز على النواحي الثقافية أو الدينية. فصار الدين الإسلامي غريبا بين السكان، واختلطت العادات الوثنية بالتقاليد الإسلامية، وصار الحكام يحملون لقب المسلمين شكلا دون فهم واع لأصول هذا الدين [3]. وعندما أحس أحد أبناء الفولاني المسلمين بما ألم بالدين على أيدي هؤلاء الحكام شبه الوثنيين أعلن الجهاد في سبيل الله لإعادة الدين الإسلامي إلى أصوله وقواعده، وصارت إمارة جوبير هي الساحة التي انطلقت منها هذه الثورة الإسلامية الكبرى التي غيرت مجرى حياة السكان، وأعادت للدين الإسلامي هناك مكانة لم يحققها في القرون السابقة، وصار الجهاد الفولاني لإخماد البدعة وإحياء السنة هو العمل الكبير الذي قام به الداعية والمجاهد عثمان بن فودى [1].

ويجدر بنا أن نتوقف قليلا لنستعرض سيرة هذا الزعيم الذي كان له ولحركته الإسلامية فضل كبير في نشر الدين الإسلامي على نطاق واسع في غرب أفريقيا. وما زالت نيجيريا الإسلامية تدين حتى يومنا هذا لحركة ذلك المجاهد الذي جعلها أكبر دولة إسلامية في غرب أفريقيا، بل في أفريقيا بأسرها. ولم يتوقف جهاد هذا الرجل عند حدود إعلان حرب على الوثنيين، بل تعداه إلى إقامة دولة إسلامية حملت لقب الخلافة الإسلامية في سوكوتو، وظل أبناؤه يحكمون في هذه الدولة الواسعة طوال قرن من الزمان، وكان لأحفاده شرف النضال والكفاح ضد الأوروبيين الذين جاءوا غازين ديار الإسلام والمسلمين، فكانوا حماة الدين، وشهداء العقيدة الإسلامية في أوائل القرن العشرين [2].

ظهور الشيخ عثمان وإعلان الجهاد:

لقد كان ظهور الشيخ عثمان بن فودى في إمارة جوبير إيذانا بقيام دولة



الشكل رقم (3)

إسلامية في غرب أفريقيا. ولد هذا الشيخ في مكان يدعى مارتا (Marta) في أرض جالمى بإمارة جوبير في 15 ديسمبر عام 1754، واشتهر والده باسم فوديو أو فودي (Fodi) التي تعنى بلغة الفولاني «المتعلم»، وانتقلت أسرته إلى ديجل (Degel) حيث حفظ القرآن الكريم، وعاش في بيئة متدينة. وعندما بلغ مرحلة الشباب تفتح عقله وازدادت مداركه، واندهش لحال المسلمين في تلك الجهات حيث ظهر الدين أمامه وقد شابته البدع، واختلطت به الخرافات، وعبثت به أيدي المضللين [3].

ولما بلغ العشرين من عمره بدأ حلقات التعليم، وسلك طريق القادريين، حيث كانت الطريقة القادرية أكثر انتشارا في غرب أفريقيا، ويصفه ابنه محمد بلو في كتاب «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور» أن والده نشأ عفيفا متدينا، ذا خصال مرضية، وهو عالم العلماء ورافع لواء الدين، أحيا السنة وأمات البدعة، ونشر العلوم وكشف الغموم، وبهر علمه العقول، وكان فصيحا، فاضلا، حسن الخلق، جميل العشرة [1].

الحديث عن الشيخ طويل، وحياته حافلة بالنضال والكفاح لأنه وهب نفسه لخدمة الدين الإسلامي، وأعلن حربا لا هوادة فيها على المشركين، ولكن سنحاول التركيز على دوره الجهادي والأحداث التي جعلت منه قطبا لكل أفريقيا الغربية. فبعد أن حفظ كتاب الله واهتدى بسنته، واحتك بعلماء عصره، سواء بطريق مباشر، أو غير مباشر توافدت عليه جموع المسلمين وازداد أتباعه يوما بعد يوم، الأمر الذي أقلق مضجع أمير جوبير فحاول اعتراض طريقة، ولكن أحس بخطورة الموقف فانحنى للعاصفة وترك الشيخ وسبيله [2]، بل وافق على قيام مجتمع إسلامي في مدينة ديجل من دون أن يتعرض للشيخ وأتباعه لأنه أحس أن الشيخ عثمان لم يهيئ نفسه لملك أو سلطان، بل كان عاكفا على العلم والتعليم [3].

مات حاكم إمارة جوبير وجاء من بعده حاكم آخر يدعى نافاتا، فأدرك قوة أتباع الشيخ عثمان، وأحس بالخطر على ملكه، فما كان منه إلا أن أصدر مرسوما يتضمن من الأمور ثلاثة:

أولها: عدم السماح لأي شخص باعتناق الدين الإسلامي إلا من ورثه عن أجداده.

وثانيها: لا يسمح لأحد بلبس العمامة بعد تاريخ المرسوم، وألا تضرب

امرأة بخمارها على وجهها.

وثالثها: عدم السماح لأحد بالوعظ إلا الشيخ عثمان نفسه [1].

وإذا حللنا بنود هذا المرسوم النافاتي نجد أنه حركة للحد من نشاط الشيخ وعدم السماح لدخول أناس جدد لا الدعوة المحمدية، وعودة النساء إلى السفور والخروج عن تقاليد الشريعة الإسلامية، وقصر الوعظ على الشيخ نفسه، وكل هذه الأمور تعرقل مسيرة الكفاح والجهاد، ونشر الدعوة [2].

كان من الطبيعي أن يعارض فريق من أتباع الشيخ هذه الأوامر، وخصوصا عبد الله بن فودى الأخ الأصغر للشيخ وساعده الأيمن في حركته الإصلاحية، فقرر الوقوف بعنف ضد هذه الإجراءات مهما كلفهم ذلك من مشاق، لكن الشيخ عثمان عارض استخدام القوة لأنه في بداية طريق طويل، ولا يريد الدخول في صراع مع الطبقة الحاكمة حتى لا تتشتت جهوده وتتبدد محاولاته، وينصرف عن هدفه الأسمى وهو إعلاء كلمة الدين، ورفع راية الإسلام والمسلمين خفاقة بين السكان الوثنيين. وفي الوقت نفسه أدرك الشيخ أن الصدام مع الحكام مؤجل إلى حين، وأن الوقت لم يحن للقضاء على أعداء الدين، فقبل المرسوم وهو يعلم علم اليقين أن الدائرة سوف تحل على هؤلاء المشركين لأنه يؤمن بانتشار الدعوة الإسلامية بالطرائق السلمية حتى يحين الوقت لإعلان الجهاد المسلح ضد كل من يقف في سبيل الله والدين [3].

كان هذا المرسوم بداية مرحلة جديدة من جهاد المسلمين في غرب أفريقيا. ويعتبره بعض المؤرخين الطلقة الأولى التي أشعلت نار الجهاد، لكن شاءت الأقدار أن يموت هذا الحاكم بعد قليل من إصدار مرسومه في عام 1803. وخلفه ابنه يونفا (Yunfa) أحد تلاميذ الشيخ عثمان، ووعد الحاكم الجديد بإلغاء ما جاء في المرسوم وإطاعة أوامر أستاذه، والسماح له بحرية الوعظ والإرشاد. لكن هذا الحاكم شعر بخطر الشيخ فانقلب رأسا على عقب، ووصلت به الحال إلى التفكير في قتل سيده وأستاذه، والتآمر على أتباعه وأعوانه، وتعقدت الأمور وازدادت العلاقات سوءا بعد رفض الشيخ أن يسلم أحد رجاله ويدعى عبد السلام لهذا الحاكم الجوبيرى الذي هاجم بلدة عبد السلام، وقتل الناس وهم نيام في شهر الصيام.

وتمادى هذا الحاكم في إذلال المسلمين وعلى رأسهم الشيخ عثمان حيث طلب منه ترك الجماعة، والعيش في المنفى وحيدا [1].

لكن الشيخ رفض ترك جماعته، وقرر التحرك بهم إلى مكان بعيد يدعى جودو (Gudu). وهنا أصدر الحاكم أمرا بالقبض على الشيخ، وطلب من حكام الإمارات قتل المسلمين ومصادرة أموالهم، وغزو القرى الإسلامية، ونهب ما فيها. فكان هذا العمل بداية الجهاد وإعلان قيام الإمبراطورية الإسلامية [2].

بعد أن صار الشيخ قائدا وإماما لجماعة من المسلمين من الفولاني الذين وجدوا فيه ارتفاعا لشأنهم، وتمجيدا لآمال طالما كانوا يحلمون بها فصاروا عدته وسلاحه ضد قوى البغي والضلال [3].

إعلان الجهاد وبداية تأسيس الدولة الإسلامية:

كانت الهجرة إلى مدينة جودو بداية تأسيس إمبراطورية الفولاني التي اتخذت من مدينة سوكوتو عاصمة لها، وأخذ الشيخ معه الأنصار والأتباع إلى أطراف الصحراء، وهناك أقروا له بالطاعة والولاء، وحلفوا اليمين على طاعته على الكتاب والسنة، وحمل الشيخ لقب أمير المؤمنين ذلك اللقب الذي استمر مع الخلافة حتى نهايتها في عام 1903، كما حمل لقب خليفة في بعض الأحيان وهو اللقب الذي حمله أبناؤه وذريته من بعده [1].

كانت هذه البيعة بداية الجهاد، وإيذانا بتأسيس الخلافة الإسلامية، ذلك لأن البيعة كانت تعني نقل الجهاد من الدور السلبي إلى الدور الإيجابي الجديد، وانتشرت أخبار الجهاد ضد حكام الهوصا، وأصدر الشيخ «وثيقة أهل السودان» التي صارت إعلانا رسميا للجهاد، حيث حدد الشيخ الأسس التي بنى عليها الجهاد، وأقرت هذه الوثيقة مبادئ منها: أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب إجماعا، وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة إجماعا، وأن الجهاد واجب إجماعا، وأن قتال البغاة واجب إجماعا [2].

كان الرد العملي على هذه الوثيقة أن أرسل الحاكم إلى إخوانه الأمراء في كاتسينا، وكانو، ودورا يطلب منهم يد المساعدة لأنه أهمل إطفاء شرارة من النار في إمارته حتى اتسعت رقعتها وزادت حدتها، وصار فوق احتماله القضاء على خطورتها [3].

تزعم سلطان جوبير جبهة المعارضة ضد الشيخ عثمان، وصارت الحرب وشيكة بين المؤمنين والوثنيين، ولم يجد الشيخ بدا من إعلان الجهاد في سبيل الله، فلبى تلاميذه النداء لأن ارتباطهم به لم يكن مجرد حلقات درس تنتهي، بل كان الارتباط عميقا بالحب والتقدير، فكانوا له مؤيدين. تكبدوا المعاناة وتحملوا عبء الكفاح عندما هاجم الشيخ إمارة جوبير إثر قرار حاكمها بتأديب الشيخ عثمان، فحدث الالتحام وبدأت الحرب وانتقلت الدعوة من مرحلة السلم إلى مرحلة الهجوم المسلح، وبعد أن أغار حاكم جوبير على قرى المسلمين وممتلكات الموحدين [4].

وفي الرابع من يونيو عام 1804 تقدمت قوات الجهاد بزعامة عبد الله بن فودى الذي أخلى مواقعه في جودو توقعا لهجوم من سلطان جوبير، واتجه إلى بحيرة تابكين كوتو، وعلى ضفاف هذه البحيرة أطبق المسلمون على قوات البغي والعدوان ودارت عليها الدائرة، فهرب من وجد سبيلا لذلك وسقط في ساحة المعركة الكثير، وتفرق شمل الأعداء في أول مواجهة حاسمة في الجهاد، لكن النصر لم يكن نهائيا لأن قوات المشركين عادت، بعد أن جمعت قواتها في 1805، وبدأت الهجوم من جديد على الشيخ وجماعته، ودارت معركة تسونسو التي هزم فيها المسلمون في البداية، وراح منهم أكثر من ألف قتيل ولكنهم صمدوا للهجوم [1].

استمرت الحرب سجالا بين الطرفين دون تفوق طرف على الآخر، وتمكنت قوات الجهاد من السيطرة على إمارة كيبى (Kebbi)، واتخذتها عاصمة للجهاد. وتوالى سقوط إمارات الهوصا في أيدى المسلمين حيث سقطت زاريا-عام 1805، واستمر النصر حليفا للشيخ وأتباعه حتى تحقق النصر المبين، ودخل عاصمة الإمارة وتسمى الكالاوا في عام 1808، وتم قتل السلطان يونفا مع عدد من أتباعه، وانتهت مقاومة الوثنيين، وصارت كلمة الذين آمنوا هي العليا، وتوافدت القبائل زرافات ووحدانا إلى معسكر الشيخ تعلن الدخول في الإسلام والانضمام إلى حلف المسلمين، وتوسعت إمبراطورية الفولاني، وتكونت إمارة جديدة، وأعطى الشيخ أعلاما لأتباعه لإعلان الجهاد في مختلف المناطق، فتوسعت رقعة الدولة، ودخل الناس تحت راية الجهاد، وانتقل الشيخ إلى مدينة سيفاوا عام 1809، بينما استقر ابنه محمد بلو في مدينة سوكوتو.

وعادت المنطقة إلى حكم المسلمين، ولأول مرة تشكلت وحدة سياسية كبرى أطلق عليها إمبراطورية الفولاني. واختلفت التفسيرات حول هذا الجهاد فمنهم من رأى فيه صراعا سياسيا بين الهوصا والفولاني، استخدم الفولاني عامل الدين كهدف، أو مناورة عسكرية من أجل تحقيق أهدافهم للسيطرة الفولانية على بلاد الهوصا [1]، أما العالم النيجيري عبد الله سميث فيرى في الحركة أكثر من محاولة مجموعة من الرجال المحرومين من أجل السيطرة السياسية لصالحهم، بل هي حركة فكرية تهدف إلى خلق مجتمع مثالي تسوده الشريعة الغراء [2].

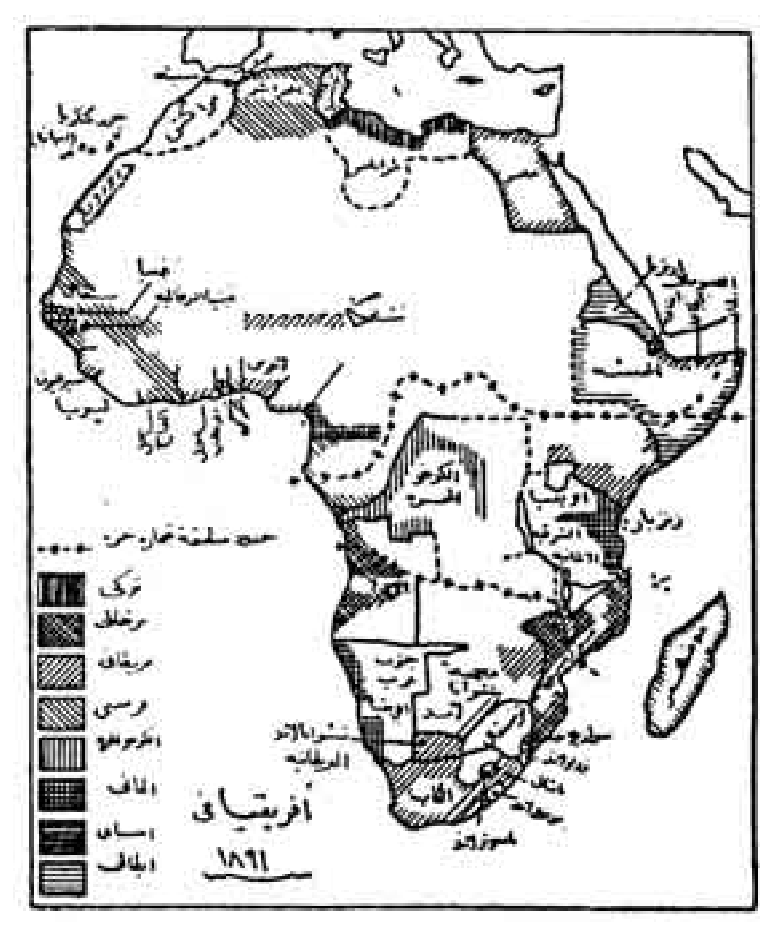
وحاول أعداء الشيخ تفسير الجهاد على أنه جهاد يخفى وراءه أطماعا سياسية في ثوب الإصلاح الديني، بل ذهب فريق آخر إلى أن هذه الثورة قد خططت من أجل مساعدة الفولاني على السيطرة على أمور البلاد، وتحقيق امتيازات كانوا قد حرموا منها من قبل [3].

لكن مهما اختلفت الآراء حول أسس الجهاد فإن الجميع يتفق على أن الحركة شمولية ارتكزت أساسا على الناحية الدينية، وأن الشيخ عثمان نفسه حدد الغرض من الجهاد في وثيقة أهل السودان وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والهجرة من بلاد الكفار، وتنفيذ أحكام الشرع، وقتال الملك الكافر الذي لا يقول «لا إله إلا الله» [4].

وقامت دولة الفولاني على نظام الخلافة الإسلامية، وصار الخليفة يشرف على كل إمارات الدولة التي أحيت الخلافة الإسلامية التي كانت أيام مجد العباسيين. وتأصلت جذور الدعوة الإسلامية فنمت وترعرعت وآتت أكلها، وتمسك المسلمون بالشريعة الغراء وساد الأمن الذي كانت تحكم به المنطقة، وازدهرت الحضارة الإسلامية في كل أرجاء الإمبراطورية[5].

وفي عام 1812 اقتصر دور الشيخ على التأليف والوعظ والإرشاد بعد أن قسم الإمبراطورية إلى قسمين: قسم شرقي تحت إشراف ابنه محمد بلو، والآخر غربي تحت إشراف أخيه عبد الله بن فودى، وكرّس الشيخ الجزء الباقي من حياته في التأمل والدراسة في مدينة سيفاوا (Sifawa) حتى وافاه الأجل المحتوم في عام 1817 بعد أن أرسى قواعد دولة إسلامية، استقرت فيها الخلافة، وحكم أبناؤه من بعده مدة قرن من الزمان حتى

سقوط هذه الخلافة في أيدي البريطانيين في عام 1903 [1].



الشكل رقم (4)

لقد لعب أبناء الشيخ وأحفاده دورا بطوليا ضد الاستعمار الأوروبي الذي تكالب على مناطق الدولة الإسلامية ابتداء من الربع الأخير للقرن التاسع عشر. وسوف نستعرض بشيء من التفصيل قصة صراع هذه الدولة الإسلامية ضد الجيوش البريطانية التي حاولت القضاء على هذه الحضارة الإسلامية الزاهرة، لكن رغم سقوط الدولة عسكريا إلا أن الأسس التي

وضعوها، والنظم الإسلامية التي ساروا عليها أدهشت الأوروبيين وجعلتهم عاجزين عن إبدال تلك الحضارة الراسخة بنظم جاءوا بها، فاضطروا للإبقاء عليها، ولم يحاولوا التدخل في شؤون المسلمين في تلك الدولة الإسلامية، فعاشت حضارتهم وازدادت ازدهارا حتى يومنا هذا. ولسوف نعرض لدور الجهاد الإسلامي ضد الزحف الأوروبي، ونحلل أسباب الصراع وعوامل الهزيمة والبطولات التي حققها المسلمون ضد جحافل الأوروبيين الطامعين في ثروات المسلمين.

جهاد المسلمين في إمبراطورية الفولاني ضد القوى الأوروبية:

بدأت قصة صراع المسلمين ضد الأوروبيين بعد طرد المسلمين من الأندلس وسقوط غرناطة عام 1492 م، ومحاولات الأوروبيين تعقب المسلمين في شمال أفريقيا والوصول إلى مملكة غانا الإسلامية، ثم التحالف مع الأحباش لضرب المماليك والعثمانيين. وشهدت العصور الحديثة حركة الكشوف الجغرافية وما تلاها من محاولات للقضاء على المسلمين، ثم دخول دول أوروبية في مجال التنافس والاستعمار بعد الثورة الصناعية، وبعد الانتهاء من كشف القارة الأفريقية وأنهارها وتكالب دول أوروبا على القارة، وعقد مؤتمر برلين عام 1884/1885، وما أصدره من قرارات لتقسيم القارة الأفريقية، وتطبيق مبدأ الاحتلال الفعلي قبل إعلان السيادة على أي إقليم من القارة، وكانت مناطق نيجيريا الجنوبية والشمالية قد وضعت حسب قرارات المؤتمر ضمن مناطق النفوذ البريطاني بعد أن نجحت شركة النيجر الملكية في بسط نفوذها على هذه المناطق ابتداء من عام 1886، وحصولها على براءة ملكية لممارسة التجارة في هذه المناطق من جنوب نيجيريا [1].

وظلت الشركة تمارس هذا النشاط على الأطراف الجنوبية لدولة الخلافة في سوكوتو حتى عام 1900، عندما ألغت الحكومة البريطانية مرسوم الشركة وأنشأت قوات حدود غرب أفريقيا لبسط النفوذ البريطاني على كل مناطق المسلمين، وعهدت بهذه المهمة إلى اللورد فريدرك لوجارد أحد بناة الإمبراطورية البريطانية في غرب أفريقيا [2].

كان تعيين اللورد لوجارد يعني بسط السيطرة البريطانية على دولة

الخلافة في سوكوتو كما يعني ضرورة القضاء على زعماء المسلمين في هذه الجهات، تلك القصة التي ستجر وراءها سلسلة من الحروب المستمرة والمناورات العسكرية والدبلوماسية التي استخدم فيها لوجارد كل الوسائل المتاحة، شرعية كانت أو غير شرعية، حتى أمكنه القضاء على هذه الدولة الإسلامية في عام 1903 بعد سقوط خليفة المسلمين وهو يدافع عن ديار المسلمين والإسلام ويذود عن الإمبراطورية التي كوّنها الشيخ عثمان بن فودى، فكان استشهاده خير مثل للبطولة والفداء، وسجل على صفحات من نور مثالا يحتذى للتضحية والدفاع عن العقيدة ضد قوى البغي والعدوان، ولنبدأ القصة من أولها حتى نهايتها في السابع والعشرين من يوليو عام 1903.

لكن قبل استعراض مراحل النضال والكفاح تتطلب طبيعة الدراسة إلقاء ضوء خفيف حول نظام الجيش في الإمبراطورية الإسلامية التي خاضت من المعارك ما لا يحصى طوال القرن التاسع عشر من أجل مقاومة الوثنيين أو أطماع الطامعين لبسط نفوذهم على أجزاء من الإمبراطورية. ومن هنا كان النظام الحربي مطلبا أساسيا في هذه الإمبراطورية، وكانت وسائل الدفاع والأمن من الأمور التي شغلت بال الخلفاء طوال القرن الماضي حيث كان الجهاد مستمرا والدفاع ممتدا في كل مكان، وليس حادثة عارضة تنتهي بحملة أو معركة حربية. لكنه رغم تلك المساحات الشاسعة التي امتد إليها سلطان الدولة، ورغم جسامة المسؤوليات الملقاة على عاتق الخلفاء، ورغم كثرة الأعداء الذين يتربصون بالدولة وأبنائها فإنه لم يوجد لدى الدولة جيش كامل ومنظم ومركزي، بل على العكس كانت كل إمارة لها جيشها ولها قوتها، وتستقل في كل شؤونها الحربية. وكان الأمراء يكلفون أتباعهم بإرسال الجنود والمعدات بناء على طلب الخليفة للقيام بحملات الجهاد، أو للقضاء على تمرد قد يحدث في إحدى الإمارات التابعة للدولة. وكان الخليفة يكلف أحد الموظفين بقيادة الجيوش حسب طبيعة كل معركة، وحسب أهمية الحمل الموجهة إلى منطقة من المناطق، وكان الخليفة نفسه يشارك في بعض المعارك بل يقود الجيوش المشتركة(1).

وكانت قوات المشاة هي أكثر القوات عددا وتضم أساسا حاملي الرماح والحراب، وحاملي السيوف، ورماة الأسهم المزودين بالأسلحة النارية، وكانت

هذه القوات من عامة الشعب، ومن المتطوعين من الفلاحين وأهل الذمة الذين يدفعون ضريبة الجزية، أو من المرتزقة الأجانب الذين أسروا في حروب سابقة. وإلى جانب قوات المشاة كانت قوات الفرسان الذين يمثلون الصفوة في جيش الأمير من الموظفين وأتباعهم، ومن حكام المقاطعات.

وكانت أسلحتهم تضم الدروع والحرب والسيوف والسكاكين والخناجر0[1].

وزود الجيش بمعدات إضافية مثل الخيام والدواب من الخيول والأبقار والحمير التي كانت تستخدم لنقل المواد والطعام وأسلحة المحاربين [2].

وكانت الدولة تعتمد على نظام الرباط الذي أدى أدوارا هامة لدولة سوكوتو لدرجة أنه يمكن أن نطلق على هذه الدولة «دولة الرباط» لأنها منذ البداية حتى النهاية كان الرباط يشكل أمرا جوهريا في حياة الدولة، حيث انتشرت الرباطات في كل موقع من المواقع الهامة في أرض الخلافة، وصارت قوة دفاعية أمام أعدائها، ناهيك عن انتشار الزهاد والعباد الذين جاهدوا في سبيل الله [3].

وعلى الجانب الآخر نجد أن لوجارد عندما بدأ إدارته الجديدة كانت قوات حدود غرب أفريقيا (West Africa Frontier Forces) لا تزيد عن كتيبتين من المشاة، وكتيبة من الفرسان، لذا نجد أنه بدأ السعي لإقامة علاقات طيبة مع الخليفة في سوكوتو، وأرسل للخليفة وإلى أمير جواندو ترجمة حرفية للمرسوم الذي أصدره باللغة العربية في أول يناير 1900، وأعلن في فقرته الأولى أن شركة النيجر الملكية قد حكمت هذه المناطق، لكنه نظرا لأنها لجأت إلى أسلوب القوة والعنف في إدارتها فقد أحست الحكومة البريطانية بإنهاء مرسومها وإلغاء إدارتها، وتحويل الإدارة إلى الحكومة ذاتها [4]. وعلى عكس ما كان لوجارد يتوقع في بداية إدارته، حيث أظهر الخليفة وأمير جواندو (الجزء الغربي من الإمبراطورية) العداء الواضح والمكشوف للأوروبيين. وعبّر الخليفة لرسول لوجارد ويدعى كياري (Kiari) عن رغبته في عدم قبول أي رسائل من الأوروبيين، بل عجل بطرد هذا المبعوث من سوكوتو، وهكذا فشلت أولى المحاولات السلمية من جانب لوجارد، وأدرك أن الحل الوحيد هو العمل التدريجي على إسقاط إمارات الدولة. والدخول خطوة خطوة في صراع مع المسلمين حتى سقوط العاصمة سوكوتو

في عام 1903.

أولا: سقوط إمارات كونتاجورا ونيب والإمارات الجنوبية.

بدأ لوجارد سياسته التدريجية بالسيطرة على بعض المناطق التي كان قد امتد إليها نفوذ شركة النيجر الملكية، وحصل على موافقة وزارة المستعمرات على غزو إمارتين من الإمارات الإسلامية، وتعلل بأن الأمراء هناك يشجعون الرق والرقيق وأنه لابد من القضاء عليهم. هذا بالإضافة إلى عرقلة قوات نيب لقوة حدود غرب أفريقيا أثناء قيامها ببعض العمليات الكشفية بين منطقة كادونا ومرتفعات بوش في عام 1901.

وبعبارة أخرى استخدم لوجارد أسلوب مقاومة الرق كوسيلة للتقدم نحو الإمارات الإسلامية في الجنوب. وبالفعل جهز لوجارد حملة وعهد بقيادتها إلى الكابتن مورلاند (Morland) ومعه خمسة عشر ضابطا، و 356 جنديا، وأربعة مدافع عيار 75 مم. ورفض أميريولا تسلم خطاب لوجارد وهدد بالقضاء على هذه الحملة البريطانية (1).

وتمكنت القوات البريطانية بفضل استخدام الأسلحة النارية وقاذفات اللهب أن تتقدم نحو المدينة. وبعد مقاومة عنيفة من سكان المدينة استطاعت القوات البريطانية دخول مقر الأمير، وفر الأمير إلى مدينة جورن (Gurin) وأرسل خطابا إلى الخليفة في سوكوتو ينقل إليه أخبار المعركة، وكيف سقطت مدينته في أيدي البريطانيين، ويطلب منه الدعم والتأييد حتى يعود إلى مدينته مرة ثانية ويطرد البريطانيين منها، كما طالب سكان المدينة بعدم التعامل مع البريطانيين، لكن الخليفة لم يحرك ساكنا، ولم يرسل قوة إنقاذ لهذا الأمير الذي تعقبته القوات البريطانية حتى قبضت عليه وأعدمته في عام 1901 أثناء الدفاع عن ديار المسلمين (1).

ولقد ساعدت الظروف الخارجية بريطانيا على التوسع في إمارات الدولة الإسلامية، ذلك أنه بعد تعقب الفرنسيين للمجاهد الإسلامي رابح الزبير وقتله في عام 1900 كان على بريطانيا أن ترقب هذا الخلاف لأن فضل الله بن رابح كان قد طلب مساعدة البريطانيين. وكان إرسال أي حملة لبلاد برنو يعني بالضرورة المرور على إمارتي بوش وجومبي التابعتين للخلافة الإسلامية، ولهذا حتمت الظروف إخضاع هاتين الإمارتين اللتين

رفضتا إعلان الولاء للبريطانيين. وأعد لوجارد قوة بقيادة الكولونيل مورلاند في عام 1902 الذي تقدم نحو مدينة بوش التي استسلمت للبريطانيين الذين عزلوا أميرها وعينوا أميرا جديدا أعلن الولاء لهم، وعين البريطانيون تشارلز تمبل (Charles Temple) مقيما في بوش [2]. وبعد سقوط إمارة بوش تحركت القوات البريطانية نحو إمارة أخرى ألا وهي إمارة جومبي التي وافقت على الحماية البريطانية، وذلك لأن أميرها كان في صراع مع أمير آخر هو المعلم جبريل جاني الذي أعلن نفسه المهدي. وبعد أن أعلنت جومبي قبول البريطانيين بدأت القوة في البحث عن عدوه الذي قاوم تلك الفئة الباغية وصمد في وجه الأسلحة البريطانية المتطورة، لكنه اضطر إلى التفرق بقواته في النهاية بعد أن أشعل البريطانيون النار في مدينته، وهرب المعلم جبريل إلى مدينة بورمي، لكنها قامت بتسليمه إلى البريطانيين الذين أرسلوه أسيرا إلى لوكوجا، وظل هناك حتى مات في عام 1907 [3].

- وتوضح هذه الأحداث البسيطة أن الصراعات المحلية بين الأمراء كانت في بعض الأحيان من العوامل التي ساعدت البريطانيين على بسط نفوذهم التدريجي على أملاك الدولة، ولم يحاول الخليفة في سوكوتو إنقاذ هذه الإمارات لعدم وجود جيش مركزي عنده، ولأن الإمارات الجنوبية لم تكن متعاونة بل كان التنافس بينها شديدا، وهذا ما سهل مهمة لوجارد والبريطانيين في السيطرة التدريجية على أملاك المسلمين في دولة الخلافة الإسلامية. وكان سقوط هذه الإمارات الجنوبية قد أعطى البريطانيين فرصة إقامة حصون جديدة في المناطق التي تم الاستيلاء عليها، وكان هذا عاملا مساعدا للبريطانيين نحو التقدم رويدا في أملاك الخلافة بعد السيطرة التدريجية على إمارات الدولة، وكان الدور على إمارة أخرى هي إمارة زاريا التي زارها الكولونيل كمبل (Kemball) في أوائل عام 1900 في محاولة لتحسين العلاقة مع هذه الإمارة. ولما عارضت بعض القرى تقدم كمبل قام بإحراقها وبالتالي ضيع هذا الرجل فرص الصداقة مع أمير زاريا [1].

وأكد الأمير في خطاب إلى لوجارد بعدم الموافقة على جعل إمارته تابعة له، وأنه لن يوقف غارات الرقيق لأنه تابع لخليفة المسلمين في سوكوتو وليس لنفوذ البريطانيين. ومنع الأمير رسل البريطانيين الذين يرغبون في

الذهاب إلى سوكوتو بالجزية السنوية من المرور في أرضه. كل هذه الأسباب أعطت مبررا للبريطانيين لغزو إمارة زاريا الإسلامية هذا في الوقت الذي أتاحت الإمارة ذاتها الفرصة للبريطانيين عندما استنجدت بهم للقضاء على أمير كونتاجورا الذي كان يغير على قرى الإمارة.



الشكل رقم (5)

انتهز لوجارد هذه المناسبة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر، وعلى الفور أرسل قوة بقيادة الكابتن بورتر (Porter) الذي دخل الإمارة وفرض السلطة البريطانية عليها، وأقام في زاريا، وصار المقيم أبادي هو حاكم زاريا، وبدأ قلق الأمير وشعبه من التواجد البريطاني، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا لطردهم. وأرسل الأمير خطابا إلى الخليفة في سوكوتو يشرح له ما أصابه، كما أرسل أيضا خطابا إلى أمير كانو، لكن لم يتحرك أحد لإنقاذه، واستمر الأمير على عصيانه للمقيم. وعندما طلب منه التوجه إلى لوكوجا لمقابلة لوجارد أعلن أنه لن يعترف بالأوروبيين وحكومتهم [١].

كان رد المقيم إيجابيا حيث أغلق بوابات المدينة ووضعها تحت الحراسة، وبدأ القناصة الإنجليز يجوبون الشوارع بحثا عن الأمير حتى قبض عليه فأخذوه أسيرا، وصار سقوط زاريا أمرا واقعيا، وفقد الأمير استقلاله جزاء لما اقترفه من ذنب، ونتيجة اللجوء إلى مساعدة البريطانيين ضد حاكم مسلم طرد من أرضه، ولم يجد ملاذا إلا في الإمارات المجاورة، وهذا يوضح أن حكام الإمارات أثناء تنافسهم لم يتعاونوا، بل تفرقوا وطلب بعضهم مساعدة الأعداء الذين أطبقوا عليهم، وانتهزوا فرصة الفرقة ليفرضوا السلطان والجاه على بلاد المسلمين.

وتوضح هذه العمليات الحربية بين القوات البريطانية المحدودة وقوات إمارات دولة سوكوتو الكثير من الحقائق منها:

أولا: عجز ترتيبات الدفاع لدى إمارات الدولة الإسلامية، وأصبحت كل إمارة تواجه مصيرها بنفسها بأسلحتها المحدودة غير المتطورة، كما أن الحصون التي أقيمت داخل مدن الإمارات قد أثبتت عدم قدرتها على تقديم مساعدات ملموسة من جانب الإمارات الأخرى، أو من الدولة مما جعلها فريسة سهلة أمام القوات البريطانية.

ثانيا: فضل أمراء المسلمين الذين سقطت إماراتهم تحت سيطرة البريطانيين الهروب مثل ما فعل أمراء كونتاجورا، ونيب، وأدماوا، وبوش، ولو اتخذ هؤلاء الأمراء سبيلا للتحالف والتكاتف والحصول على المساعدات من الخليفة لتغيرت صورة المقاومة، ولوجد البريطانيون عنفا أشد ومقاومة أصلب، وتقدما بطيئا في ظل تلك الجهود الإسلامية لصد هذا التوسع الأوروبي [١].

ثالثا: خلق هذا التواجد البريطاني في إمارات دولة سوكوتو موقفا جديدا لم يكن موجودا من قبل، حيث بدأت كل إمارة، وفي ظل غيبة السيادة العليا للخليفة، الاعتماد على نفسها في مسألة العيش والبقاء، وصار كل أمير يبحث عن أنسب الوسائل التي تحافظ على إمارته حتى اضطر إلى التحالف مع الأعداء، ومصداق ذلك ما فعله كل من أميري زاريا وجومبي حينما استعان كل منهما بالبريطانيين للتغلب على أمير مسلم من بني جنسهم.

ثانيا: السياسة الدبلوماسية للوجارد مع الخليفة.

رغم سقوط الإمارات الجنوبية في أيدي البريطانيين ورغم الاحتلال التدريجي لمعظم الإمارات إلا أن الهدف النهائي كان دخول العاصمة سوكوتو وإسقاط الخلافة، وضم المنطقة لنفوذ البريطانيين. وحاول لوجارد إقامة جسور الصداقة مع الخليفة لكنه لم يجد منه إلا كل رفض وتعنت. وكل مبادرة مع الخلافة صار مصيرها الفشل. وكان لوجارد مترددا ومشتت الفكر، وكانت القوات لديه محدودة، ومعظم الجيش كان قد اتجه لحروب الأشانتي، وكان عليه الانتظار حتى تعود هذه القوات، وفي الوقت نفسه كان يخشى مخاطر إرسال حملات شمالا نحو العاصمة سوكوتو لأنها يمكن أن تنعزل عن قواعدها وتتعرض للضرب من الخلف.. لكل هذه الأسباب راح لوجارد يبحث عن وسائل دبلوماسية يحاول بها كسب الخليفة الذي كان بين رحى القوى المعادية، حيث الألمان من الشرق والفرنسيون من الشمال، بالإضافة إلى رابح الزبير وما يثيره من أخطار على إمارات الدولة الشمالية.

بدأ لوجارد يجرب الوسائل الدبلوماسية، وراح يعيد جسور المودة رغم أن مرسومه للخليفة في عام 1900 لم يصل رد من الخليفة عليه. ورغم إرسال وكيل لوجارد ويدعى والاسي عدة رسائل إلى الخليفة لكنه لم يحرك ساكنا. ورغم هذا أخذ لوجارد يشرح للخليفة بعد سقوط إمارتي نيب وكونتاجورا أسباب عزلهما، وهي لأنهما يمارسان تجارة الرقيق التي حرمتها القوانين الدولية، وطلب من الخليفة تعيين أمراء محلهما أكثر عدلا. لكن الخليفة شعر بتدخل لوجارد في شؤونه، وتعقدت الأمور بين الطرفين عندما وصل الخليفة خطابا من والاسي يفيد بعزم البريطانيين على تعيين مقيم

لهم في مدينة سوكوتو وطلب من الخليفة قبول هذا العمل [1].

ولما باءت كل هذه الأمور بالفشل، ورفض الخليفة الرد على مراسلات البريطانيين حاول لوجارد الاستعانة بجهود اللورد كرومر في مصر، وطلب منه أن يرسل للسير ريجنالد وينجت في السودان لكي يتوسط لإرسال بعض السودانيين لتحسين العلاقات وبدء مرحلة مفاوضات مع الخليفة [2].

وأسفرت هذه المساعي البريطانية عن إمكانية لوجارد إرسال خطاب إلى الخليفة في عام 1902، لكن عندما عاد رسول لوجارد أخبره أن اللقاء كان فاترا، وأن جو الخوف من الأوروبيين يسيطر على الخليفة، وليس هناك أمل في أن تتحسن العلاقات بعد استيلاء البريطانيين على الإمارات الجنوبية [3]. وكان رد الخليفة معتدلا وأفاد لوجارد بأنه لم يطلب مساعدات من البريطانيين، ولم يطلب الدخول في مفاوضات لتهدئة الأحوال في الإمارات الجنوبية، وأعرب له عن أنه لا توجد قوة أو سلطة أعلى من الله العلي العظيم (4).

وصورة هذا الخطاب معتدلة والرد منطقي، فلم يحاول الخليفة إثارة البريطانيين ولم يحاول إقامة جسور العلاقات مع الأوروبيين الذين احتلوا أجزاء من دولته، وليس فيه ما يسيء إلى لوجارد وإلى البريطانيين رغم احتلالهم أجزاء من أرضه وتشريد أبناء دولته. كان الخليفة مؤدبا وكان يكظم غيظه، ولم يحاول إثارة الأوروبيين الذين كانوا يترصدون له من كل الجهات.

لكنه في مايو عام 1902 أفاد لوجارد حكومته بأنه قد تسلم خطابا من الخليفة يقول فيه: «منا إليكم، يجب أن تعلموا أنني لا أوافق على أن يقيم أي واحد منكم بيننا، وأنني شخصيا لن أتسامح معكم، ولن أسمح بالتعامل معكم فيما بعد، ومن ثم فليس هناك أي تبادل بيننا وبينكم سوى ما بين المسلمين والكفار. إن الحرب المقدسة قد فرضها الله علينا، وليست هناك قوة فوق قوة الله».. يثير هذا الخطاب الكثير من الغموض لأنه لا يشير إلى أي علاقات لمراسلات سابقة، ومما يزيد الأمر غرابة أن الأصل العربي لهذا الخطاب مفقود، وبالتالي أثار الشكوك حول ادعاءات لوجارد ضد الخليفة.

وإذا ما حللنا مواد هذا الخطاب نجد أن الغموض يعتريه منذ الجملة

الأولى، «منا إليكم، يجب أن تعلموا أنني لا أوافق على أن يقيم أي واحد منكم بيننا» إذا تساءلنا عن هذه العبارة، من الذي طلب هذا الشيء؟ هل طلب لوجارد مثل هذا الشيء من الخليفة؟ إن طلب تعيين مقيم كان من والاسي نائب لوجارد الذي أرسل الخطاب عن طريق الضابط المسؤول في مدينة ايللو (Illo)، لكن اتضح أن هذا الخطاب لم يصل إلى الخليفة، ويدل على هذا اعتراف والاسي نفسه بأنه لو استخدم وسائله الخاصة لسلم الخليفة أضعاف هذا الخطاب ولحصل على رد عليها [1].

وإذا كان خطاب الخليفة إلى لوجارد يحمل نذير الحرب، فلماذا ماطل لوجارد مدة ثمانية أشهر ولم يخطر الحكومة البريطانية؟

إن أمور الحرب عاجلة، ولا يمكن أن تؤجل طوال هذه المدة إلا إذا كان هناك سر غامض، أو عدم وجود دليل قاطع يمكن أن يقدمه لوجارد إلى حكومته، ومن الواضح أن لوجارد كان يخطط لحملة عسكرية حتى تحين الفرصة المناسبة لذلك. وكان لوجارد واقعا تحت تأثير بعض الرجال الذين كانوا يؤيدون الحل العسكري مثل أبادي الذي كان قد ذهب إلى زاريا وفشل في إقامة علاقات ودية معها. وانتهى الأمر بالقبض على أمير زاريا. ذلك العمل الذي أغضب نائبه في إمارة كيفي (Keffi) والذي قام على الفور باغتيال المقيم البريطاني الكابتن مولوني، وهرب إلى إمارة كانو.

ساعدت كل هذه الأحداث على تأكيد الحل العسكري خصوصا وأن الجهود الدبلوماسية قد فشلت مع الخليفة عبد الرحمن الذي مات بعد حادث مصرع المقيم مولوني، وكان من الممكن للوجارد أن يفتح صفحة جديدة مع الخليفة الجديد إلا أن لوجارد رفض الإقدام على ذلك، ورفض إخبار حكومته بهذه التطورات، وأضاع فرصة دبلوماسية بإخفاء هذه الأحداث حيث لم يخبر وزارة المستعمرات بوفاة الخليفة إلا في 21 ديسمبر عام 1902 أي بعد وقوع الحادثة بشهرين [1].

والخلاصة أن لوجارد افتعل هذا الخطاب، وخطط له ودبر كلماته حتى يجد مبررا لتحميل الخليفة مسؤولية إجبار البريطانيين على الحرب.

ثالثا: القتال يتجدد وسقوط إمارات الدولة في الشمال:

بعد أن استنفد لوجارد كل الوسائل الدبلوماسية، وبعد إخضاع الإمارات

الجنوبية وفشل كل الجهود لإخضاع الخليفة بالوسائل الدبلوماسية بدأ لوجارد يستعد للحل العسكري. وكان احتلال إمارة كانو من أهم مراحل الغزو البريطاني نظرا لعراقة هذه المدينة، وقوتها العسكرية، وسورها الضخم الذي أعيد بناؤه في عام 1902 بالإضافة إلى الخندق الكبير الذي يحيط بالمدينة [2].

وبعد استكمال الاستعدادات قرر لوجارد في أبريل 1902 الهجوم على إمارة كانو، وكان عليه أن يجد من المبررات ما يقنع به حكومته للقيام بهذه الحملة، فكانت عملية مصرع الكابتن مولوني في إمارة كيفي هي الدليل الكافي. فبعد الحادث اشتبكت قوات لوجارد مع قوات إمارة كيفي، وهاجمت القوات البريطانية المدينة، وهرب نائب الحاكم مع أتباعه إلى إمارة كانو، فأرسل لوجارد عدة حملات عسكرية لمتابعته، ورصد جائزة لمن يسلمه نائب الحاكم في كيفي. وأرسل لوجارد إلى حكومته يفيد أن حياة الرجل الأبيض قد صارت في خطر على حد زعمه [1].

وفي 29 يناير 1903 تقدمت القوات البريطانية بقيادة الكولونيل مورلاند (Morland) نحو مدينة كانو، وواصلت القوات تقدمها حتى صارت على بعد ستة أميال من مدينة كانو، وأرسل لوجارد مرسوما باللغة العربية إلى سكان المدينة يعرب فيه عن نيته السلمية، وأنه يحارب فقط نائب الحاكم الهارب من كيفي.

أما أمير كانو فلم يكن متواجدا حيث ذهب مع نوابه إلى العاصمة سوكوتو لتقديم فروض الطاعة والولاء للخليفة الجديد، وانتهز لوجارد هذه الفرصة وأصدر أوامره في الثالث من فبراير لاقتحام المدينة التي أحكم جنوده السيطرة على أسوارها، وبدأت مدافع المكسيم تضرب المدينة بعنف، ولكن فشلت كل المحاولات في إحداث أي ثغرات في أسوارها المنيعة، وأمام هذا العجز تحركت القوات البريطانية نحو بوابة أخرى من المدينة؟ وأشعلت فيها النيران، فساعد ذلك على دخول المدينة. وبالطبع تدفق البريطانيون بأسلحتهم الحديثة نحو الداخل، فاضطر الحراس إلى الهروب أمام قصف النيران البريطانية، وتقدمت القوات نحو قصر الأمير، واستولت عليه بعد استبسال دفاع القائد المسلم شانو محمد الذي رفض تسليم القصر، وفضل الموت على الاستسلام، وسقط شهيدا مع حفنة الرجال الذين قاوموا حتى

الشهادة [2]. واضطر أميرها إلى استكمال الحرب، وكوّن قوة عسكرية اتجه بها إلى كانو، لكن هذه القوة اضطرت إلى التراجع أمام عنف المدافع البريطانية، ورغم ترك الأمير الجيش إلا أن الوزير محمد بخاري (1886-1903) واصل القيادة لبقايا جيش لم يزد على 3500 جندي وتقدم بهم نحو مدينة كانو ودارت معركة عنيفة بين جيش المسلمين وقوات البريطانيين بالقرب من مدينة رويا (Rawiya)، وظهرت شجاعة المسلمين، وكبدوا البريطانيين خسائر فادحة لكن خسارتهم كانت أشد، وقتل الوزير مع عشرة من الرؤساء المحيطين به الذين فضلوا أيضا الشهادة في سبيل الله على الاستسلام لقوات البريطانيين.

وكانت هذه الهزيمة بداية النهاية لمقاومة المسلمين في إمارة سوكوتو، وتوجه الأمير إلى العاصمة سوكوتو حيث حصل على خطاب من الخليفة إلى حاكم إمارة جوبير لكي يسمح له بالمرور ببلاده حتى يواصل الجهاد ضد البريطانيين في كانو، ولكن أمير جوبير سلم أمير كانو إلى البريطانيين الذين نقلوه إلى مدينة يولا ثم إلى لوكوجا، وظل هناك حتى مات عام 1907، وأنهى موته مرحلة بطولية من كفاح المسلمين ضد القوات البريطانية، ودلت مقاومته هو وأعوانه على تلك الروح الإسلامية الفدائية في معظم إمارات الدولة، ولولا التفوق الأوروبي لتغيرت مسيرة المعارك، ولحقق المسلمون بطولات وانتصارات على القوات البريطانية.

وهكذا سقط أحد الأعمدة الرئيسة في دولة الخلافة، وصارت إمارة كانو بموقعها الممتاز في أيدي البريطانيين الذين استفادوا كثيرا من هذا الانتصار، حيث أصبحت مهمتهم سهلة للتوغل شمالا نحو العاصمة سوكوتو.

رابعا: الزحف البريطاني على العاصمة

ما إن سقطت إمارة كانو في أيدي البريطانيين حتى صار الطريق سهلا أمام جيش لوجارد نحو العاصمة سوكوتو التي صارت وحدها الجزء الباقي بعيدا عن سيطرة بريطانيا. وأسرع لوجارد يجهز الجيوش، ويقيم المواقع الحصينة على الطرق المؤدية إليها، وتشكلت قوة بريطانية بقيادة الكابتن ميريك (Merick) استعدادا للتقدم والزحف نحو آخر معقل للمسلمين ورمز الموحدين في شمال نيجيريا [1].

كان الموقف في العاصمة معقدا، فالإمارات سقطت الواحدة بعد الأخرى أمام الزحف البريطاني، وجيوش هذه الإمارات لم تستطع أن تقف أمام أسلحة متطورة ومدافع ميكانيكية حديثة، وقوات مدربة على نظم حربية تخالف ما كان سائدا في أفريقيا في القرن التاسع عشر، وزاد الأمر سوءا موت الخليفة عبد الرحمن الذي كان يقف ندا للأوروبيين، ورفض مرارا وتكرارا أن يستعين بهم، أو أن يتنازل لهم عن السيادة. مات هذا الخليفة في أكتوبر عام 1902، فدار صراع حول من يخلفه في تلك الحقبة الحرجة من تاريخ دولة الفولاني، وأخيرا استقر الرأي على الطاهر بن أحمد، الذي حمل لقب الطاهر الأول، في نوفمبر 1902. وكان على هذا الخليفة الجديد أن يتحمل مسؤولية الدفاع عن بقايا دولة سقط معظم أجزائها في أيدي البريطانيين، وكان عليه أن يقرر مصير الدولة الإسلامية في هذه المنطقة. من هنا بدت مظاهر الحياة الإسلامية صعبة أمام هذا التحدي الأوروبي لدولة عاشت قرنا من الزمان تطبق شريعة الإسلام الغراء، ولم يكن من السهل على خليفة المسلمين أن يتنازل بسهولة عن هذا التراث الكبير لقوة أوروبية تتربص بالإسلام والمسلمين، وكان على هذا الخليفة أن يحافظ على اللقب الذي حمله وعلى الشعب الذي ولاه الخلافة، وعلى دين الإسلام الذي يتعرض لموجة عاتية أمام حركة صليبية من نوع جديد. كل هذه المواقف تجعل من مقاومة الخليفة في تلك الظروف الصعبة ملحمة نضال تشرّف كل مسلم يحافظ على دينه وأمته، ملحمة بين طرفين غير متكافئين، طرف يحمل أحدث الأسلحة وأحدث ما وصل إليه العلم من وسائل حربية متطورة، وتنظيمات عسكرية حديثة، وجيوش مدربة على أحدث نظم القتال، وطرف آخر فقد أملاكه، وتطاير الكل من حوله، ولم يبق من جيشه إلا حفنة من الرجال، زادهم التقوى، وسلاحهم الإيمان بالله، وهدفهم الصمود حتى النهاية دفاعا عن الدين وحماية لأرض المسلمين من جحافل الغازين الأوروبيين. ولنبدأ قصة المرحلة الأخيرة من بدايتها حتى تكتمل صورة النضال أمام كل مسلم يحافظ على دينه، وحتى يتضح لنا مدى ما فعلته قوى الاستعمار الأوروبي بحضارة الإسلام في تلك الأصقاع من أفريقيا.

انقسم الرأي في العاصمة سوكوتو قبل الغزو البريطاني لها ما بين مساند لعقد اتفاق سلام مع البريطانيين، أسوة بما فعلته أمارة كاتسينا،

ومحفزا للنضال حتى النهاية حفاظا على شرف الإسلام والمسلمين، وبين الرأيين برز رأي ثالث يرى في الهجرة من سوكوتو قبل قدوم الأوروبيين وسيلة لجمع شمل ما بقى من المؤمنين، والاستعداد للحرب بعد ذلك ضد قوى الغزو الأوروبي. وكان الخليفة الجديد رجلا ورعا تقيا، لم يخبر المعارك، ولم تحنكه السنون، رأى في الهجرة شرقا خير سبل الأمان، لكن الأحداث كانت سريعة ولم يكن الوقت يسعفه لاتخاذ قرار بهذا أو ذاك، ووجد نفسه أمام جيش بريطاني يتقدم نحو عاصمته وليس أمامه إلا الاستسلام أو الصمود والحرب حتى يأتي الله أمرا كان مفعولا.

اجتمع الخليفة بالبقية الباقية من رؤسائه للتشاور في الأمر، وتحديد موقف محدد أمام الوضع الحالي الذي انتهى باحتلال معظم إمارات الدولة، وكان من الصعب، والأمر كذلك، اتخاذ قرار مصيري في هذا القرار العصيب، وكانت فكرة وزير سوكولو، ويدعى محمد بخاري، الهجرة، لكن هذا القرار وجد معارضة من بقية الرؤساء لأنهم وجدوا فيه تحطيما لروح الجهاد وضياع الخلافة دون مقاومة، الأمر الذي يقلل من هيبة المسلمين أمام الغزاة البريطانيين. وأخيرا قرر الخليفة بعد وصول أنباء تقدم البريطانيين نحو العاصمة أن يكتب خطابا إلى الكابتن مورلاند، اعتذر فيه عن تأخره عن الرد على خطاب سابق، وطلب منه الانتظار لحين عقد جلسة ثم يرسل له برأيهم الجماعي [1].

عندما وصل هذا الرد إلى مورلاند اعتقد أن الخليفة يحاول كسب الوقت لوضع ترتيبات واستعدادات دفاعية، وكان الخليفة بالفعل قد تخلى عن فكرة الهجرة، وقرر إقامة معسكر لجيشه خارج أسوار المدينة بعد صلاة الجمعة يوم 12 مارس 1903. هذا في الوقت الذي تحرك فيه الجيش البريطاني من مدينة باكور Bakura ووصل إلى مدينة شاجاري (Shagari). وفي 11 مارس 1903 انضم الكابتن ميرك Merick إلى مورلاند وصار الجيش البريطاني الزاحف نحو العاصمة سوكوتو يضم حوالي خمسة وعشرين ضابطا و596 جنديا، و 4000 من الحمالين للمعدات، وأربعة مدافع مكسيم، أما جيش سوكوتو فكان يضم حوالي 2000 فارس و 4000 من جنود المشاة وصلاحهم عبارة عن حراب وسهام وبنادق مع بعض المسدسات القديمة [2].

تقدمت الحملة البريطانية حتى صارت على مشارف العاصمة في الرابع عشر من مارس، فاقترب الجيش البريطاني من أسوار المدينة حيث كان السور الجنوبي يضم حوالي 2000 فارس و4000 من المشاة، وكان الخليفة يقود وسط الجيش، وعلى الميمنة محمد ميتوراري، وعلى الميسرة إبراهيم راباح، والتحم الجيشان أولا في اشتباكات خارج العاصمة استخدم فيها البريطانيون مدافع المكسيم التي أنهت الصراع لصالح البريطانيين وفي خلال ساعة من الزمان فقد جيش الخليفة حوالي سبعين رجلا [3].

بعد هذه المناوشات الأولى اتضح أن قوات الخليفة عاجزة عن الوقوف في وجه البريطانيين، ولذا لم يقاوم الخليفة، وانسحب إلى مدينة بورمي (Burme) شرقا، وترك العاصمة التي دخلها البريطانيون ليجدوها شبه مهجورة حيث اتجه الوزير محمد بخاري إلى مدينة مارنونا (Marnona)، وكتب إلى البريطانيين في التاسع عشر من مارس خطابا يعبر فيه عن رغبته في الصلح بشرط احترام الدين الإسلامي. ولما وجد استجابة من البريطانيين عاد إلى العاصمة سوكوتو حيث التقى بلوجارد الذي اجتمع بالمسؤول في الدولة، وتم اختيار خليفة جديد حيث صار لقب محمد الطاهر بن علي بن محمد بلو الطاهر الثاني سلطانا بدلا من لقب خليفة.

لم يعد السلطان أكثر من مجرد أمير لسوكوتو، وصارت مكانته كرئيس ديني له سلطة إشرافية، وسجل لوجارد انتهاء الخلافة الإسلامية في سوكوتو في مرسوم له أعرب فيه بأن الغزو الفولاني في الفترة السابقة بقيادة الشيخ عثمان بن فودي قد أخضع هذه المناطق، وصار للفولاني حق حكم هذه الجهات وجباية الضرائب وعزل الأمراء والحكام. لكن بسبب هزيمة الفولاني وسقوط الخلافة انتقلت كل الأمور إلى الغزاة الجدد من البريطانيين.

والسؤال الآن: هل توقفت المقاومة الإسلامية بعد دخول لوجارد إلى العاصمة سوكوتو؟

إذا استعرضنا الأحداث بعد سقوط العاصمة وذهاب الخليفة إلى الشرق نجد أن المقاومة الإسلامية لم تتوقف حيث أسرع الناس في جماعات متفرقة نحو الشمال أو الشرق وراء خليفتهم، وتجمعوا من جديد، وبدأت حركة مهدية في عام 1903 تطالب باستمرار المقاومة لهذا الغزو الأوروبي،

وأعلن الناس الولاء للخليفة المعزول، وأظهروا استعداداتهم للوقوف بجانبه رغم الهزيمة العسكرية[1]. ولما وصلت أخبار تجمع المسلمين من جديد خلف زعيمهم وخليفتهم أرسل المقيم في سوكوتو فرقة عسكرية بقيادة الكابتن جودون Goodwin لمطاردته فاضطر الخليفة إلى الاتجاه شرقا، واشتبك أثناء مروره على إمارة زاريا مع قوة بريطانية بقيادة الكابتن سورد Sword. لقد كان الخليفة في حيرة حيث لم تتضح أمامه أهداف محددة، وكان يتلقى نصائح متضاربة من أتباعه، فمنهم من يطالبه بالاستسلام، ومنهم من يشير عليه بالهجرة، ومنهم من يطالبه بالاستمرار في تحدي البريطانيين، وبالتالي تشتت فكر الخليفة، ولم يجد من يقدم له النصيحة المخلصة في تلك الظروف الصعبة التي أطبق البريطانيون عليه من كل جانب حتى الجانب الشرقي الذي يجد فيه الخليفة ملاذا للحركة، وعندما سيطر البريطانيون على بحيرة تشاد ووجد الخليفة الطريق مغلقا اتجه للشرق في إمارة ميسو (Missau)، وأخيرا اضطر إلى الذهاب إلى مدينة بورمي، وواصل المسيرة حتى استقر به المطاف أخيرا في مكان يدعى «بيما هل» (Bima Hill). وهناك انضم إليه بعض الفلاحين وكون قوة جديدة، لكن البريطانيين خافوا من ازدياد انضمام الأتباع إليه فقرروا القبض عليه أو طرده، وبالتالي تم تجهيز قوة بريطانية لتعقب هذا الخليفة [1]. ويوضح هذا الصمود من جانب الخليفة وأتباعه أنه لا يريد الاستسلام بسهولة بالرغم من تخلي كل المساعدين والمعاونين عنه، وبالرغم من سقوط دولته وتعيين سلطان جديد، إلا أن روح الفداء وروح العطاء كانا وراء هذا الصمود الذي جعل الخليفة يواصل بكل ما أوتي من قوة جهاده حتى النهاية، وحتى تكتب له الشهادة في سبيل الدفاع عن شرف الإسلام والمسلمين، وكانت النهاية في أرض بورمي آخر معقل للخليفة في بلاده.

خامسا: معركة بورمي الأولى.

بدأت المناوشات بين القوات البريطانية بقيادة براون، وقوات الخليفة في بيما هل، واضطر الخليفة إلى عبور نهر جونجولا، ولكنه لم يجد ملاذا فعاد أدراجه إلى بورمي في السادس عشر من مايو عام 1903. وبذلت القوات البريطانية جهدا كبيرا لدخول مدينة بورمي، لكن لقيت مقاومة

عنيفة من قوات المعلم موسى التي دافعت دفاعا مستميتا عن المدينة. ورغم سقوط عدد كبير من قوات المدينة ما بين قتيل وجريح إلا أنهم صمدوا ومنعوا البريطانيين من دخول المدينة، واضطرت القوات البريطانية إلى الانسحاب بعيدا عن أسوار المدينة. وفي الوقت نفسه دخل عدد كبير من سكان المدن الأخرى إلى قلب برومي للانضمام إلى قوات الخليفة، ومن ثم ارتفعت الروح المعنوية للمجاهدين، وبدأت مرحلة جديدة من الصمود أمام القوات البريطانية. ومع استمرار القتال وتجدد الاشتباكات خسرت القوات البريطانية بقيادة الكابتن سورد (Sword) أكثر من ستين قتيلا من بينهم عدد من الضباط البريطانيين جنبا إلى جنب مع عدد الجرحى، وعلى الجانب الآخر بلغت الخسائر في بورمي حوالي 250 قتيلا بما فيهم رئيس المدينة المعلم موسى نفسه الذي سقط شهيدا وهو يدافع عن مدينته الإسلامية. ورغم هذه الخسائر لم يستسلم المدافعون وأجبروا الكابتن سورد على الارتداد والانسحاب إلى مكان بعيد عن بورمي [1].

انسحب الكابتن سورد وهو يجر أذيال الهزيمة إثر الصمود العنيد لقوات الخليفة في سوكوتو في آخر حصن للمسلمين في بورمي، وتقدم سورد بقواته المنهزمة إلى إمارة بوش حيث وصلت إلى هناك في الثالث والعشرين من مايو. وكانت هذه أولى هزائم البريطانيين منذ غزوهم لدولة الخلافة في سوكوتو، وهذا يعطي دليلا واضحا على صمود المسلمين الذين لم يستسلموا بسهولة، وبالرغم من سقوط عاصمتهم، وعزل خليفتهم إلا أن روح الجهاد والصمود ظلت معهم، واستطاعوا أن يلحقوا بالأوروبيين خسائر في إحدى معارك الكفاح والنضال ضد التوسع البريطاني [2].

بعد هذه السلسة الطويلة من المعارك أحس الخليفة أن المقاومة للغزو الأوروبي عديمة الجدوى بعد أن فقد أرضه ومنصبه، ولم يبق له سوى الإيمان بالله تعالى والاعتزاز بدينه، فطلب من المقيم البريطاني في إمارة بوش السماح له بالخروج من الدولة والهجرة شرقا لأنه لم يعد يجد في الحرب أي فائدة، لكن جاء رد المقيم على غير هوى الخليفة حيث أصر المقيم على استسلامه دون شرط، أو وعود فرفض الخليفة الاستسلام للبريطانيين. ولعل رفض الخليفة للاستلام إنما يعود إلى أنه بعد عودته إلى بورمي وقع تحت تأثير جماعة من المتعصبين الذين أرادوا الحرب حتى

النهاية، ومن هؤلاء جماعة المعلم جبريل ورجال الطرق الصوفية الذين كان لهم دور في مقاومة الاستعمار الأوروبي في كل أنحاء أفريقيا بالإضافة إلى أمراء نيب، وأمير ميسو، ونائب الحاكم في كيفي، والعامل الآخر هو أن الخليفة كان رجلا ورعا يعتز بكرامته ودينه أمام أتباعه، وكان استسلامه إهانة كبرى لمكانته بين المسلمين، وكان قرار الصمود ورفض الاستسلام يعني مواصلة الكفاح المشرف حتى الشهادة في سبيل الله في معركة بورمي الثانية.

سادسا: المعركة الأخيرة وانتهاء المقاومة.

بعد أن أصيبت بريطانيا بنكسة في بورمي بدأت تستعد لهجوم جديد انتقاما من هذه المدينة ومن سكانها، وأخذت التعزيزات تصل إلى هذه المنطقة حيث وصلت قوة من ستين فارسا، وثمانين من صف الضباط تحت قيادة الميجور بارلو (Barlow)، وحدث اشتباك بسيط بين القوات البريطانية وقوات الخليفة في مدينة أشاكا، لكن لم يتحقق النصر لأي من الطرفين وعادت قوات الخليفة إلى بورمي، وتمكنت القوات البريطانية من إخضاع كل المدن المجاورة لبورمي حتى صارت مدينة منعزلة عن بقية أجزاء الدولة.

وكانت أنباء هزيمة الكابتن سورد في بورمي قد شجعت وزارة المستعمرات على إرسال برقيات إلى كل من سيراليون، وساحل الذهب، ولاجوس، وجنوب نيجيريا تفيد إرسال قوات إلى سوكوتو إذا استدعى الأمر.

وفي السابع والعشرين من يوليه عام 1903 تحركت القوات البريطانية إلى أسوار مدينة بورمي لتبدأ المعركة الأخيرة التي حارب فيها سكان بورمي أشد المعارك بسالة، وواجهوا أسلحة الأوروبيين المتطورة بإيمان صادق وعزيمة لا تلين، وكانوا يفضلون الشهادة في سبيل الله على الاستسلام للأوروبيين، ومن هنا ازداد المدافعون إصرارا، واشتد وطيس المعركة أمام الأسلحة البريطانية المتطورة.

لقد كان عجز الوسائل الدفاعية في مدينة بورمي سببا في فتح البريطانيين لبوابتين من أبواب المدينة من الناحية الجنوبية الغربية، لكن المدافعين ما إن شاهدوا القوات البريطانية حتى أطلقوا عليهم السهام والأعيرة النارية. ولما تقدم الكابتن مارش «March> نحو المدنية أصابته

قذيفة من أحد المدافعين فسقط هذا الرجل قتيلا.

واصل البريطانيون برغم عنف المقاومة زحفهم نحو داخل المدينة، وتحولت المقاومة إلى لقاء وجه لوجه، وحارب المجاهدون من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت، وكان البريطانيون يشعلون النار في المنازل لإيقاف اندفاع المجاهدين، وللحد من عنف المقاومة، واضطرت القوات البريطانية إلى الانسحاب خارج المدينة مما سهل لقوات بورمي الدفاع من خارج الأسوار، وتكبد البريطانيون خسائر فادحة في الأرواح والمعدات.

اضطر البريطانيون إلى طلب تعزيزات جديدة من الكابتن بارلو، ودخل البريطانيون في صراع مستميت مع سكان بورمي، ودارت اشتباكات بالقرب من مسجد المدينة، وتحطم قصر الأمير وانتهت مقاومة بورمي تماما. وكانت هذه المعركة آخر مراحل المقاومة الشديدة التي واجهها البريطانيون في غزوهم لنيجيريا الشمالية [1].

أسفر هذا الهجوم على بورمي عن موت عدد كبير من المسلمين بسبب استخدام الأسلحة، حيث قدر عدد القتلى بحوالي 650 قتيل. وهو رقم كبير لسكان مدينة صمدت حتى النهاية، ولولا الأسلحة المتطورة، والقوات التي جاءت من أماكن كثيرة لاستمر صمود هذه المدينة الباسلة [1].

وأثناء الهجوم على المدينة كان الخليفة محمد الطاهر في المسجد، واستطاع أن يقود جماعته من المجاهدين الذين اشتبكوا مع قوة بريطانية وعرقلوا تقدم الكابتن بالمر، لكن الخليفة وقد صمد حوالي الساعة شعر بعدم جدوى المقاومة فقرر الخروج من المسجد، لكن كان الموت ينتظره لأنه عندما اقترب من السور الجنوبي أصيب بطلقة في رأسه، فسقط شهيدا ومعه اثنان من أتباعه حيث لقي الثلاثة حتفهم وفضلوا الشهادة في سبيل الله، والدفاع عن الدين حتى وهم في أسوأ حالات اليأس والقنوط، وبعد أن فقدوا كل شيء عدا سلاح الإيمان الذي جعلهم يواصلون الصمود منذ فترة طويلة، وشاركهم في هذا المصير البطولي الأمير الزبير أمير أدماوا [2].

وقبل أن تغرب شمس يوم 27 يوليه 1903، وعلى أشلاء جثث الضحايا المجاهدين، وبين الدخان والدمار في مدينة بورمي، وبين الدمار الذي حل في كل مكان، ووسط هذه الفوضى التي حلت بمدينة إسلامية ظلت تكافح وتؤوي المجاهدين في سبيل الله، جاءت النهاية المحتومة لدولة الخلافة

الإسلامية، وأسدل الستار على دولة إسلامية تأسست في أوائل القرن التاسع عشر بفضل جهاد الشيخ عثمان بن فودي الذي أحيا السنّة وأخمد البدعة، وجاهد في سبيل الله حق جهاده، وظل خلفاؤه يحكمون ويطبقون شريعة الإسلام الغراء في تلك الإمبراطورية حتى سقوطها في النهاية في أيدي القوات البريطانية بعد أن أرست دعائم الدين، وطبقت الشريعة الإسلامية في كل منحى من مناحي الحياة، وعاد عصر الخلافة المزدهر في هذه الدولة. ولما سقطت الدولة ودخلت الإمبراطورية في ظل الحكم البريطاني عجز البريطانيون عن تغيير النظم الإسلامية التي ترسخت في نفوس الناس، ومارسها الشعب طوال قرن انقضى ولم يجدوا بديلا أفضل منها، فتركوها وأبقوا عليها، وادعوا أنهم أدخلوا نظام الحكم غير المباشر، وظلت سوكوتو تمارس نشاطها الروحي في شمال نيجيريا حتى يومنا هذا، ومازال المسلمون في نيجيريا يشكلون أغلبية السكان، ومازالت نيجيريا حتى الآن أكبر دولة إسلامية في غرب أفريقيا بشكل خاص وفي القارة الأفريقية بشكل عام، وذلك بفضل جهود خلفاء دولة الفولاني الإسلامية، وبفضل روح النضال والكفاح الذي بذلوها طوال القرن الماضي، وبفضل حملات الجهاد في سبيل الله، وإنشاء مدن الرباط الإسلامية التي كانت ركائز إسلامية لنشر الدين الإسلامي في أعماق الصحراء وعلى حواف الغابات الاستوائية.

ومن العرض السابق لمراحل النضال التي قام بها خلفاء الدولة نجد الإصرار والتحدي ورفض الخلفاء عقد حلف مع الكفرة من المسيحيين وإصرارهم على الاستقلال بدولهم بعيدا عن المنافسات الاستعمارية. لقد كان رفض الخليفة عبد الرحمن لكل عروض لوجارد مثلا يحتذى في التحدي، ورغم سقوط ولايات الدولة الجنوبية في أيدي القوات البريطانية إلا أنه رفض التعامل معهم بأي وسيلة وتحت أي ظرف من الظروف. ورغم محاولات لوجارد للاتصال به دبلوماسيا وعقد اتفاق سلمي معه إلا أن الخليفة ظل حتى وفاته عام 1902 محافظا على العهد، ورافضا التعاون مع الأوروبيين ومصرا على تطبيق الشريعة، ومتمسكا بالدفاع عن بلاده ضد عدوان المعتدين.

ولما تولى الخليفة الجديد-مع كل الظروف المحيطة به-قرر المضي في

الطريق نفسه ورفض التعاون مع الأوروبيين الذين كانوا يقتربون من دولته ويستولون على إماراته التي سقطت الواحدة تلو الأخرى. ورغم كل الظروف الصعبة رفض خليفة المسلمين كل عروض الأوروبيين وقرر مع حفنة من المخلصين مواصلة الكفاح حتى النهاية، وبعد سقوط العاصمة وتولي سلطان جديد لم يستسلم الخليفة الذي تحرك شرقا، وجمع جيشا جديدا ودخل في معارك مستمرة مع البريطانيين، بل كبدهم كثيرا من الخسائر وألحق بهم الهزيمة أكثر من مرة وهو أعزل من كل شيء إلا الإيمان بقضية الإسلام والمسلمين. وحينما نفدت كل وسائله وفقد كل سبل المقاومة عرض على البريطانيين السماح له بالهجرة شرقا من بلاد صارت تحت حكم الكفار، لكنهم أصروا على استسلامه دون قيود أو شروط فأبى الخليفة أن يستسلم حتى لا يظهر أمام من بقى من أتباعه أنه يفرط في الدين، ورفض الاستجابة لأوامر البريطانيين، وفضل البقاء حتى النهاية، وحتى يكون من الشهداء الصالحين. فكان إصراره على المقاومة حتى الشهادة مثلا لكل من آمن بالله إيمانا قويا، وضرب هذا الخليفة لكل المسلمين ليس في غرب أفريقيا بل في العالم الإسلامي المثل الواضح على الدفاع في سبيل الله، وصار الخليفة رمزا للإسلام وأسطورة للنضال، وملحمة للصراع في سبيل العقيدة والدين.

لم يكن سقوط دولة الخلافة الإسلامية في سوكوتو نتيجة تقاعس المجاهدين، أو تقصير جنود المسلمين في الدفاع عن بلادهم والدين. لقد بذلوا ما وسعتهم الحيلة واستنفذوا كل وسيلة، وحاربوا من إمارة إلى إمارة، بل من حارة إلى حارة حتى ضج بهم البريطانيون وأشعلوا النار في كل مقدسات المسلمين للتنكيل بهم: وإجبارهم على الاستسلام. لكنهم قاوموا وصمدوا وانتصروا في معارك قليلة، وظلوا حتى النهاية رجالا مخلصين، وأمناء على العقيدة. والسؤال الذي يلح علينا ونحن ننهي هذه الملحمة البطولية لرجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. لماذا انهزمت جيوش الخلافة بسهولة أمام البريطانيين؟ إن أسباب سقوط دولة الخلافة الإسلامية بسهولة أمام الأوروبيين بالرغم من المعارك الطويلة واستمرار المقاومة حتى النهاية إنما يرجع للأسباب الآتية:

أولا: أن دولة الخلافة طوال القرن التاسع عشر اعتمدت على ولاء الأمراء للخليفة الذي يقيم في العاصمة سوكوتو، ولذا لم يكن لدى الدولة

جيش مركزي دائم يستطيع التوجه إلى أي معركة تحت قيادة مركزية واحدة، بل كانت الجيوش ترسل من الإمارات أثناء حملات الجهاد، ثم تعود هذه الجيوش إلى إماراتها بعد الحملات العسكرية، وظل هذا النظام سائدا طوال عهد الخلافة. ولما بدأ التوسع البريطاني لجأ لوجارد إلى أسلوب القضاء التدريجي على جيش كل إمارة ولم يتحرك السلطان لإنقاذ الإمارات لأن الجيش محدود، ولأن القيادة غير مستعدة لتلك الجيوش الأوروبية.

ثانيا: اتضح من الغزو البريطاني التدريجي لإمارات الدولة أن كل إمارة انشغلت بالدفاع عن مصالحها الخاصة فقط، وكانت كل إمارة تواجه الموقف بنفسها وتارة تحارب وتجاهد وتدافع، وتارة أخرى يهرب أميرها إلى إمارة ثانية، لكنه لم يجد الملاذ للاستعداد للمقاومة، ومرة أخرى كانت بعض الإمارات تدخل في اتفاق سلام واستسلام للبريطانيين فتسقط الإمارة دون إدراك أميرها أنه وضع نفسه تحت رحمة الأوروبيين، وبعبارة أخرى كان الأمراء يسيرون أمورهم حسب الظروف لعدم وجود سياسة موحدة تجمع الإمارات تحت قيادة واحدة متعاونة. وحتى الخليفة نفسه كان عاجزا عن الاستجابة لصيحات الإمارات التي واجهت مصيرها بنفسها، ووجدت من الخلافة تجاهلا لها ولمستقبلها فراحت تبحث عن وسائلها الخاصة، الأمر الذي أوقعها فريسة سهلة أمام القوات البريطانية الزاحفة نحو الإمارات الواحدة تتلوها الأخرى حتى أطبق لوجارد ورجاله على جميع إمارات الدولة وانفتح الطريق أمامه للعاصمة. ولو كانت هناك سياسية مركزية وجيش دائم بقيادته العسكرية لامتدت فترة المقاومة، ولربما تغيرت الصورة، وحافظت الدولة على استقلالها.

ثالثا: يضاف إلى عدم التنسيق عدم وجود القيادة المركزية المشتركة أن حاربت جيوش الدولة بأسلحة بالية تمثلت في الحراب والدروع والسهام والسكاكين والسيوف، وهي أسلحة تصلح لمدن لها أسوارها، أو لجيوش أفريقية لها مثل هذه الأسلحة، وتحتاج العمليات الحربية إلى فترات طويلة من الكر والفر والحصار، لكن هذه الأسلحة التقليدية واجهت جيشا غازيا تسلح بأحدث ما وصلت إليه تكنولوجيا عصره من سلاح بالإضافة إلى التدريب والتخطيط للمعارك بأسلحة نارية قلما حمل الأفارقة مثيلا لها، وبالتالي واجه جيش الخلافة حربا من نوع جديد، وخططاً عسكرية مدروسة

ومعارك يمكن أن تحسمها مدافع المكسيم في أقل فترة ممكنة مع ما تخلفه وراءها من آثار مدمرة من القتلى والجرحى، فكانت الكفتان في وضع متناقض. جيش تقليدي يستخدم الفروسية والدروع والرماح، وجيش مدرب ومسلح بأحدث الأسلحة فكانت الغلبة للجيش الأوروبي الحديث.

رابعا: عاشت إمارات الدولة طوال القرن التاسع عشر في حملات جهاد مستمرة ضد الوثنيين، وكانت جيوش الإمارات على دراية واسعة بخطط المناطق التي يعلنون فيها حرب الجهاد، وبعبارة أخرى عرف المسلمون نظم الحرب لدى القبائل التي يشنون عليها حروبهم. وكانوا يتعايشون مع هذه النظم ويعرفون سبل مقاومتها والقضاء عليها، ولكن مع الغزو الأوروبي واجه جيش الإمارات أول لقاء مع الأوروبيين، وبالتالي كانوا يجهلون خططه وإمكاناته في الوقت الذي تمرست فيه القوات الأوروبية على خطط المقاومة الأفريقية في أماكن أخرى من القارة، وهذا ما سهّل على الأوروبيين مهمة الالتحام مع الأفارقة بأسلحتهم التليدة، وخططهم البالية فكان النصر حليفا لهم.

خامسا: سياسة لوجارد في احتلال إمارات الدولة بشكل تدريجي، فكان هذا التدريج يعطيه الفرصة لدخول الإمارات الواحدة بعد الأخرى. والمعروف أن قوة كل إمارة في حد ذاتها أضعف كثيرا مما لو واجه عدة إمارات في وقت واحد، أو شتت قواته في أكثر من موقع فكان التركيز على الإمارات الواحدة تلو الأخرى عاملا قويا في التوسع التدريجي في مناطق الدولة، وساعده على ذلك عدم وجود تنسيق أو تعاون بين الإمارات، كما أن موقف الخليفة السلبي من الإمارات الجنوبية وعدم إعلانه التعبئة العامة وإرسال الجيوش إلى المناطق التي بدأت تقاوم التوسع الأوروبي جنوبا سهّل للوجارد مهمته، فاضطرت الإمارات إلى الاستسلام أو الدخول في صلح مع البريطانيين.

تفسر كل هذه العوامل أسباب سقوط هذه الدولة الإسلامية أمام فئة من الأوروبيين الذين أحكموا خططهم، ونفذوا عملياتهم بشكل منظم ضد تلك الإمبراطورية الشاسعة، لكن لا يمكن أن نغفل أن طريق الأوروبيين، وهم يتوسعون للسيطرة على الدولة، لم يكن مفروشا بالورود ولم يكن سهل المنال، بل على العكس واجه الأوروبيون مقاومة إسلامية في كل خطوة

خطوها، ووجد الإنجليز التحدي من الأمراء ومن الرجال المخلصين، ومن رجال الطرق الصوفية الذين ناضلوا وكافحوا وكبدوا البريطانيين خسائر فادحة اعترف بها المقيمون البريطانيون في تقارير طويلة إلى حكومتهم.

وما أمثلة الكفاح على أرض بورمي وإصرار الخليفة على مواصلة الكفاح حتى النهاية إلا نموذجا أمام الأوروبيين على قوة تعصب المسلمين لدينهم. وأسدل الستار على إمبراطورية إسلامية في غرب أفريقيا قامت بدورها خير قيام للدفاع عن الإسلام وحضارته، ورغم سقوطها في أيدي البريطانيين في عام 1903 إلا أن الدور الذي لعبته في الحفاظ على الشريعة في ظل الحكم البريطاني غير المباشر قد أتاح لها أن تتبوأ مكانة روحية في نفوس المسلمين الذين ظلوا على الولاء لدينهم، وحافظوا على تقاليدهم، وأحيوا الخلافة الإسلامية بكل معانيها. ومازال المسلمون في نيجيريا حتى يومنا هذا ينعمون بفضائل الدين ويحافظون على العقيدة التي ترسخت بعد حركة جهاد الشيخ عثمان بن فودي.